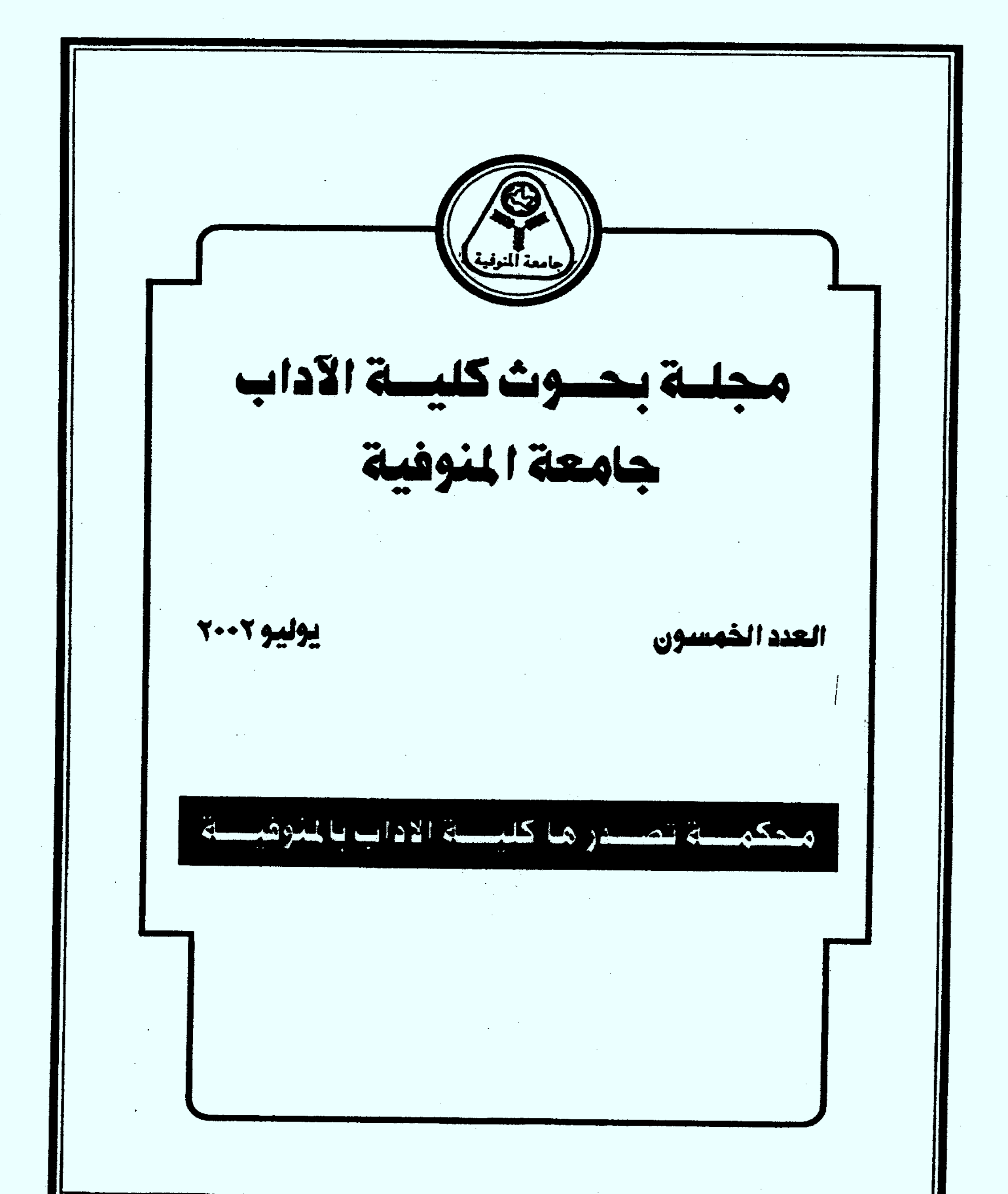
مجلة
بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

بحوث العدد الخمسين

محكمة تصدرها كلية آداب المنوفية

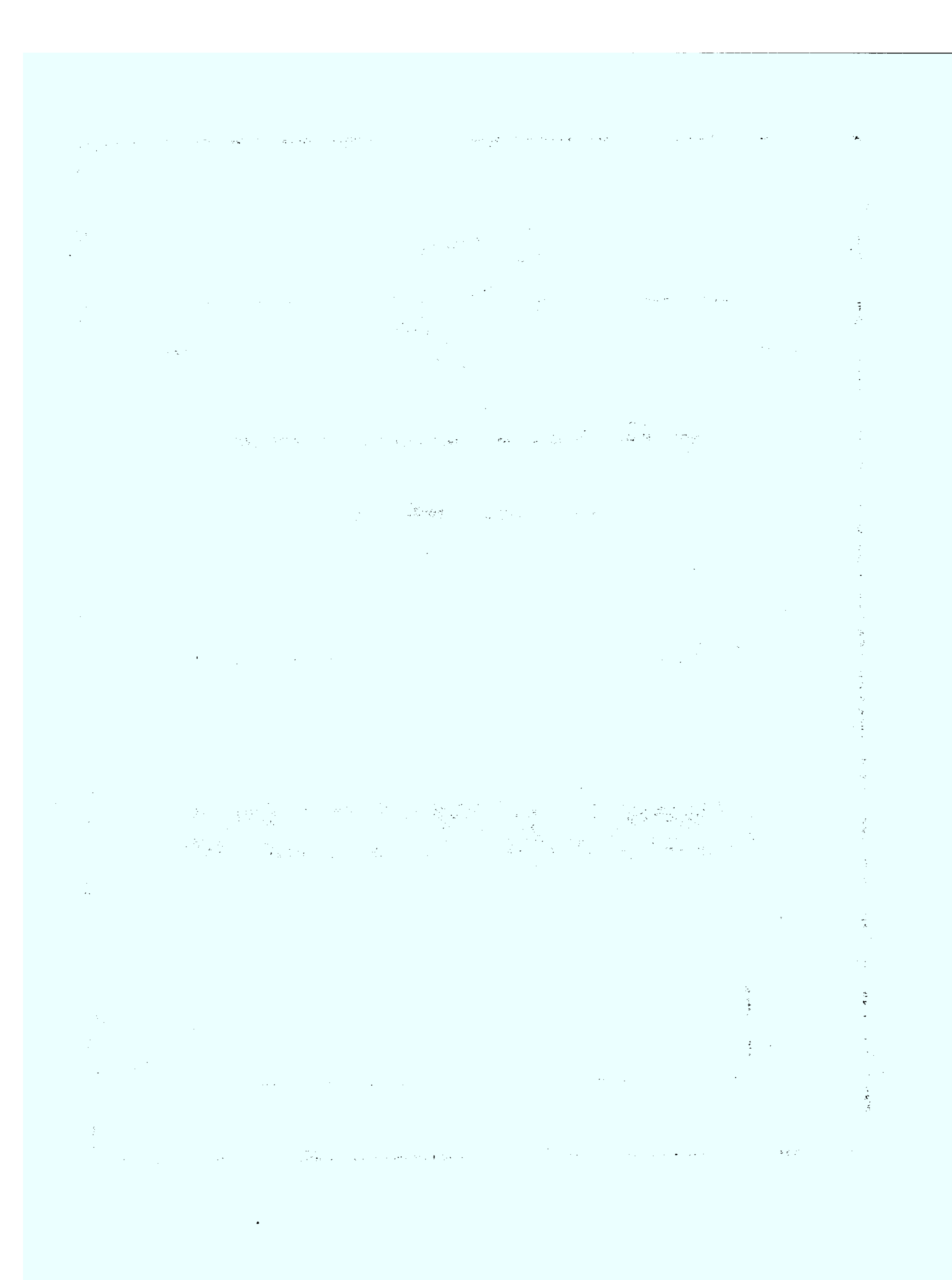
العدد الخمسون **يولية ٢٠٠٢**



مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

العدد الخمسون يوليو ٢٠٠٢

محكمة تصدرها كلية الاداب بالمنوفية



أصول البحوث والمواد التى تصل
للمجلة لا ترد ولا تسترجع سواء
نشرت أم لم تنشر .

جميع الآراء الورادة فى هذه المجلة
تعبر عن رأى كاتبيها ولا تعبر
بالضرورة عن رأى المجلة

كلمة العـــــدد

بسم الله فاتحة كل خير ، والحمد لله خاتمة كل نعمة ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد مصدر الفضائل كلها ، وعلى آله وصحبه من الأوائل والأواخر .

فإن مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية تمضى طموحة معتزة بكونها مصدراً للإشعاع الثقافى والفكرى نحو مجتمعنا المصرى العريق ، ومن هذا المنطلق يتواصل عطاؤنا فى هذا العدد والذى ينظر إلى كل فكرة أو رأى من منظور قيم المستقبل الذى نحلم به ، والذى نتطلع به إلى الإضافة فى مدى الوعى الإنسانى بالتقدم الذى لانهاية له أوفى ظل العولمة ، والثورة المعلوماتية والتكنولوجية ، والإنفتاح الثقافى ، والذى لا بد من اقتحامها من أوسع الأبواب دون أن نخشى شيئاً مادمنا ننطوى على الوعى النقدى ، وثقافتنا أحوج إلى هذا الاقتحام من غيرها ، وهذا لا يتعارض بطبيعة الحال مع ضرورة المحافظة على خصوصية هويتنا الثقافية .

وها هو ذا العدد ثمرة لهذا العطاء المتواصل يحرص على متابعة نخبة من الباحثين فى أنحاء متفرقة من عالمنا العربى بتخصيص مساحات واسعة لطرح نتاجهم العلمى الهادف كى يسهموا بنشاطهم المتميز فى تحقيق قدر من التفاعل والتبادل الثقافى .

والله نسأل أن تسهم هذه المجلة فى طرح أفكار العديد من الباحثين والمثقفين والمفكرين لتكون بذلك خير رافد يصب فى مجرى الإرتقاء بثقافتنا ، وتحقيق هويتها المتميزة فى مصرنا الحبيبة .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير

ورئيس التحرير

أ.د/ زينب عفيفى شاكر

مجلة
بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

بحوث العدد الخمسين

محكمة تصدرها كلية آداب المنوفية

العدد الخمسون يولية ٢٠٠٢

مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية



الدائرة الجمركية
محور العلاقات بين الشرق والغرب
فى عصر السلاطين الأيوبيين

إعداد
د / حسين النحال
كلية التربية - دمياط

محكمة تصدرها كلية آداب المنوفية
العدد الخمسون
يوليو ٢٠٠٢

الدائرة الجمركية
محور العلاقات بين الشرق والغرب
في عصر السلاطين الايوبيين

بقلم الدكتور/ حسين النحال
كلية التربية - دمياط

استأثرت دولة الأيوبيين بموقع جغرافى ممتاز سيطر على مساحات كبيرة فى مصر والشام، وبلاد الحجاز واليمن. وهذا بالطبع كان له أبعد الاثر على أنتشار المنافذ البحريه على تلك السواحل الواقعة على البحر الابيض المتوسط، وكذا التى كانت تقع على ضفتى بحر القلزم. ومن خلال استقراء تاريخ البلدان نجد أن المنافذ التى كانت تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط كانت تتمثل فى الاسكندريه- ودمياط(١) . واللاذقيه(٢) .أما المنافذ التى كانت تقع على ضفتى بحر القلزم،فكانت تتمثل فى مدينة القلزم وعيذاب وجده وعدن (٣) . وكان من الضرورى على الحكومات الاسلاميه الموجوده وقتئذ توفير النظم الإدارية والاجراءات الأمنية لتنظيم أحوال المسافرين الداخلين إلى البلاد والخارجين منها، سواء أكانوا من أهل المشرق أو من أهل الغرب. وكان نتيجة لذلك أن اهتم المختصون بإنشاء الدوائر الجمركية العديده عند هذه الثغور للاضطلاع بهذه المهمة. وكانت الدوائر الجمركية تعتبر محور العلاقات بين الشرق والغرب خاصه فيما يمس الجوانب الاقتصادية أو الجونب السياسية.

اولا: الجوانب الاقتصادية

كانت الدائرة الجمركية تعتبر سوقاً عالمياً ترد إليها المتاجر سواء أكانت شرقية أم غربية، لذلك اهتم القائمون هناك نيابة عن السلاطين بتنظيم الأسواق حسب كل سلعة، أو طبقاً لجنسيات المتعاملين فيها. فكان هناك سوق للبهار، وآخر للمنسوجات (٤) . وثالث للمصنوعات الخزفية. وكان التجار يردون إلى الثغور من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم. فمن الشرق كان التتار والصينيون والهنود والفرس والآفارقة، ومن الغرب كان البنادقه، والتسكان، واللومبارد، والألمان، والجنويه، والأمالفيين والبيازنه فضلاً عن المرسيليين والبروجاند (٥) .

ولقد وعى السلاطين الأيوبيين وقتذاك أهمية التجارة كشريان حيوى يغذى الدخل العام للخزينة السلطانية، ويساهم فى تدعيم أركان الدولة، فإهتموا برعاية القادمين إلى البلاد عبر الثغور. فأصدروا المراسيم التى تشدد على ضرورة احترام القادمين للتجاره مع مصر وسائر امارات السلطنه ، وليتلق كذلك تجار الجهة الغربيه الوا ردين إلى الثغر المحروس من أصناف

المسلمين والفرنج، فليحسن لهم الوفادة وليعاملهم بالمعدلة المستفادة، فإن مكاسب الثغر منهم، ومن الله الحسنى وزيادة، (٦) .وإذا كانت المراسيم السلطانيه قد حفظت لنا الأساليب التى سلكها السلاطين المسلمين حيال تجار العصور الوسطى، فإن الرحلات التى سلكت الطرق والدروب، ونزلت إلى الثغور الاسلامية فى مصر والشام وبلاد الحجاز واليمن - وقتئذ - قد شرحت لنا تفصيلات الاجراءات المتبعه فى الثغر عند استقبال الأساطيل التجاريه القادمة من الخارج. فهذا هو الرحالة ابن جبير الذى زار مصر فى بداية عصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى يشرح لنا كيفية استقباله فى ميناء الاسكندريه فيقول ، فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا، أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض. ليؤدى زكاة ذلك كله، دون أن يبحث عما عليه الحول من ذلك أو لم يحل ، وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضه لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال، عليه حول أم لا، (٧) .واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب، وسلع المركب، فطيف به مرقباً على السلطان(٨) أولاً، ثم على القاضى، ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفى كل يستفهم ثم يقيد قوله، فخلىّ سبيله، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم، وما فضل من أزوده .... واستدعوا وحداً واحداً،وأحضر مالكل واحد من الأسباب، والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الأسباب... وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا، (٩).

وبينما كانت موانى البحر المتوسط تستقبل سفنها على هذا النحو فإن موانى بحر القلزم فى جده وعيذاب وعدن كانت على خلاف ذلك، ويصف لنا بن المجاور طريقة استقبال المراكب فى ثغر عدن فيقول ، إذا وصل مركب إلى عدن وأبصره، الناظور على جبل نادى بأعلى صوته ياهريا، وأشار إلى صاحبه، وأشار صاحبه إلى رفيقه وأشار الرفيق إلى الغلام. فحينئذ يوصل الغلام خبر المركب إلى والى البلد فإذا خرج من عند الوالى أعلم المشائخ بالقرضه وبعدهم ينادى بأعلى صوته من على ذروة الجبل هيريا هيريا هيريا. فإذا سمع عوام الخلق الصوت ركب الجميع الجبل :إن كان ماذكره صحيحاً يعطى له عن كل مركب دينار ملكى، وإن كان كاذباً يضرب عشرة عصى وعند أقتراب المركب يركب المباشرون الصنابيق (١٠). للقاء المركب حتى اذا ما اقتربوا منه صعد المباشرون وسلموا على الناخوذه ويسألونه من أين وصل، ويسألهم الناخوذه عن البلد ومن الوالى وسعر البضائع، وكل من يكون له فى البلد أهل أو معاريف من أهل المراكب أما أن يهندونه، أو يعزونه له، ويكتب اسم

الناخوذه وأسماء التجار، ويكون الكراني قد كتب جميع مافي بطن المركب من متاع وقماش، فيسلم إليهم الرقعه، وينزل المباشرون في الصنابيق راجعين كلهم رأسا واحداً إلى الوالي، ويعطونه رقعة الكراني مع ماكتبوه من أسماء التجار ويحدثونه بحديث المركب، ومن أين وصل، وما فيه من بضائع، ويخرجون من عنده يدورون في البلد يبشرون أهل من وصل بجمع الشمل، ويأخذ كل بشارته. فإذا أرسى المركب تقدم إليهم نائب السلطان، ويصعد المفتش يفتش رجل بعد رجل، ويصل التعتيش إلى العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الإبط، ويضرب بيده على حجزة الإنسان، ويدخل يده بين إليتيه ويشتمه على قدر المجهود. وكذلك عجوز تفتش النساء تقرب بيدها في أعجازهن وفروجهن[١١]. ومهما يكن من أمر الطريقه التي كان يعامل بها التجار المسلمون فإنه بمجرد انتهاء الاجراءات الجمركيه كان يخلى سبيلهم ومع كل منهم صك يدون فيه البضائع التي يصطحبها وقيمة الجمارك المتحصله عليها، وكان للتاجر المسلم الحق في التجول في البلاد طولاً وعرضاً دون أدنى أعتراض. وهذا في حد ذاته امتياز عظيم بالنسبه للتجار الشرقيين الذين كان لايخشى من وجودهم. فأينما حلوا فالبلاد بلادهم والأموال أموال الله طالما أدوا حق الزكاة عليها. وهذا ماكان يختلف - تماماً - مع الاجراءات التي كانت تتخذ مع التاجر الأوربي، حيث كانت اجراءات استقبالهم في الثغر تختلف كلية عن استقبال التاجر الشرقي عامة والمسلم خاصة. وهذا في حد ذاته لايعد من قبيل التفرقة العنصريه، وإنما كان لطبيعة العلاقات التي كانت بين الجانبين آنذاك. خاصة أن الغرب كان دائم التربص بأهل الشرق. ومن خلال مارواه لنا رحالة العصور الوسطى الأوربيين نستطيع أن نبلور طريقة استقبال التجار الفرنج في ثغورالدولة سواءً في مصر أو في الشام. فالمعروف أن الاساطيل التجاريه الأوربيه اعتادت منذ القدم على القيام بعمل موسم تجارى في بلاد الشرق اعتاد الأوربيون تسميته (مدةMuda) حيث كان يبدأمع بدايه شهر سبتمبر وينتهي في شهر ابريل من العام التالي[١٢]. ولعل متسائلا يسأل لماذا في هذه الفتره من كل عام؟ وللإجابه على هذا السؤال نقول: إن الأوربيين تعلموا فن ركوب البحر وعلموا أن الرياح الغربيه العكسيه تبدأ نشاطها مع بداية حلول فصل الشتاء في حوض البحر الأبيض المتوسط وأن الرياح الموسميه الجافه تبدأ مع فصل الصيف مما يساعد في الحالتين على القدوم والعوده في سهوله ويسر. كما أن التاجر الأوربي الذى كان يألف الجو البارد في بلاده طول العام كان لا تناسبه الإقامه في فصل الصيف حيث درجة الحرارة العاليه حتى أن الذين كانو يستمرون في الشرق كانوا يفضلون الإقامه في المناطق الساحليه.

وفي المقابل كان القائمون على أمر الثغور في بلاد السلطان يعينون الناظور لمراقبة

حركة السفن فى البحر، حيث كان يجلس فى أعلى نقطه فى برج المراقبه. وعندما كانت الأساطيل التجاريه الأوربيه تظهر على مسافه معقوله بحيث تكون ميممه وجهتها شطر الثغر كان الناظور برفع أعلاماً بعدد السفن القادمه فوق برج المراقبه وبهذه الطريقه يتم حصر المراكب الموجوده خارج المرسى، وعلى الفور يقوم موظف خاص بالإحصاء بتسجيل تقرير بإحصائية السفن القادمة ثم يرسلها إلى نائب السلطان على المدينه (١٣).وعندما كانت المراكب ترسوا فى الحوض الأمامى للميناء على مسافه كافيه، كانت تخرج لها مراكب صغيره وعليها عمال السلطان ومعاونيهم من الكتبه والتراجمه فيقوم الترجمان بالاستفسار عن اسم كل راكب وجنسيته وسبب الزياره (تجارة . أم حج) وللتاجر عن السلع التى يصطحبها. وفى أثناء ذلك يقوم الكتبه بتدوين كل المعلومات فى جرائد خاصة، كل جريده تخص جنسية معينه من الفرنج. ثم يستنسخ منها نسختان، ثم يعود المباشورن والتراجمه إلى ديوان الجمرك فترسل الجرائد بما تحتويه من معلومات إلى قناصل الدول، كل حسب جنسيته ليخبرهم بالأعداد القادمه للإقامه فى فندق الجاليه التى يتبعها كل تاجر، وترسل النسخ جميعاً إلى نائب السلطان الذى يقوم بإعداد تقرير، ويرسل ملخصه فى بطائق مع الحمام الزاجل إلى السلطان فى القاهرة(١٤). وخلال مدة وجيزه يعود الطير من قبل السلطان حاملاً تصاريح الدخول إلى الميناء. وعندئذ تصدر الأوامر إلى السفن الراسيه للإقتراب من الرصيف. فتنصب السقالات، وينزل المسافرون. حيث يكون فى استقبالهم مندوبون عن قناصل الدول تحت إمرة قنصل النوبه(١٥).

وفى الدائرة الجمركيه تتم عمليات التفتيش علي ماذكر سابقاً ويقوم كل مسافر أجنبى بدفع مبلغ ٢ دوكات رسم دخول. أما البضائع فكان يستأدى عليها ١٠٪ قيمة العائدات الجمركيه. هذا فيما يخص التاجر الأجنبى. أما فيما يخص الحاج الذى كان يأتى خصيصاً لزيارة الأماكن المسيحيه المقدسه فى مصر والشام فكانت الدولة تراعى ذلك وإيماناً منها بأحقية الشعوب فى زيارة مقدساتها طبقا لمبدأ التسامح مع الديانات الأخرى حسب الشريعة الأسلاميه فكان الحاج الأوربى يدفع رسوم تقل عن ذلك بكثير حيث كان يسدد مبلغ إجمالى مقداره خمس دوكات شامله المبالغ التى يحملها ورسم الزياره(١٦).

وكان التجار الأوربيون ينزلون فى الفنادق المخصصه لهم كل حسب جنسيته، وكانت الموانى تحتضن بين جنباتها مجموعه كبيره من الفنادق لجميع الجنسيات المترددة على مدن السلطان المصرى سواء أكانت فى الأسكندريه. أو فى دمياط أو فى اللاذقيه. وكانت البندقيه وحدها تمتلك فندقين فى كل ميناء. وكان هناك فندق للبيازنه، وآخر للجنويه وهكذا بالنسبه للمرسيليين والقطلان.

على أن مايلفت الإنتباه فى هذا الامر أن الحكومه المصريه كانت تتحمل أعباء إنشاء هذه الفنادق، ونفقات ترميمها وتعيين الحراسات عليها. وكان الفندق(١٧) عباره عن مبنى ضخم يقام على مساحه واسعه، وكان فى تصميمه يعتبر تحفه معماريه عظيمه حيث كان يأخذ شكل المربع المفرغ من الداخل يلتف بأضلاعه التى كان تحتوى على غرف- حول حوش كبير يستخدمه التجار كمكان انتظار ببضائعهم لحين تدبير أماكن سكناهم وتخزين بضائعهم (١٨).وكان الدور الأرضى يستخدم كمخازن للبضائع أما الأدوار العليا فكانت تخصص لسكنى التجار.

ولقد تبلورت عبقريه المهندسين المسلمين الذين كانوا يقومون بتصميم الفنادق، فوضعوا فى أعتبارهم أن يجعلوا الفندق مكان جذب للتجار الأجانب حتى يقيموا فى بلاد السلطان أطول مده ممكنه دون أن تصيبهم الوحشه أو الملل، فجعلوا الفندق يشبه الحى المتكامل،حيث ألحقوا به حديقة تحتوى على مجموعة كبيرة من الأشجار والزهور والحيوانات وتكون قريبة الشبه لما فى بلادهم. وألحق بدائرة الفندق كنيسه خاصه لإقامه طقوس عباداتهم، فضلاً عن وجود مخبز خاص. ولقد بالغت الحكومات الإسلاميه فى التسامح مع الأجانب فسمحت لهم باستخدام القسوس والشمامسة للإعتناء بشعائر الأجانب فى حرية تدعو إلى الافتخار برحابة صدر الدين الاسلامى، وسماحته،وكان رجال الدين يعاملون معاملة قناصل بلادهم فلا تستأدى عنهم أية رسوم (١٩).

ولقد حرصت الادارة المصريه على اظهار المدن الموانى - محل تلاقى التجار- بالمظهر الحضارى، فكانت تنشئ فى كل ميدان من ميادين هذه المدن الفسقيات المصنوعه من الرخام البديع وتطعم جدرانها بالفسيفساء الخلابه وتمدها بالمياه فى منظر بديع. وكانت هذه الميادين تحتوى على متنزهات متسعه تحتوى على اشجار الفاكهة من كل نوع، حيث اشجار الليمون والبرتقال والموز والأعناب، فضلاً عن أشجار الزينه التى تحيط كل بيت(٢٠).

وتحدثنا كتب التاريخ بأحاديث مسهبه عن تلاقى تجار الشرق (المسلمين، الهنود، الصينيين، الفرس) بتجار الغرب من جميع الجنسيات فى الثغور المصريه والشاميه على امتداد العصور الوسطى، حيث تجتمع السلع الشرقيه والسلع الغربيه وتعرض جميعها فى معارض متنوعه داخل الثغر. بما يعرف بنظام (المدة) أو الموسم التجارى(٢١).

فمن السلع الشرقيه كانت هناك التوابل بما تحويه من فلفل وكمون وقرفه وزيت الكافور والبخور بجميع أنواعه، فضلاً عن الأعشاب الطبيه التى كانت تستخدم فى العلاج أو التى كان تستخدم فى الزينه كالشبه وحجر الكُحل(٢٢). والبلسان(٢٣). وزيت الكتان وزيت الخردل

والعنبر وكانت الثياب المصنوعه فى مصر وبلاد الشام تلقى رواجاً عظيماً لدى تجار الغرب الأوربى،وكانت مدينة الأسكندريه تضم بين جنباتها ثمانمائة مصنع(٢٤). « يُعمل بها من الأقمشة العجيبة التى لا توجد فى غيرها(٢٥). وكانت منسوجاتها تضارع ما تنتجه دمياط وتنيس اللتين قال عنهما ابن حوقل فى تاريخه «تنيس ودمياط هما جزيرتان بين الماء الملح والعذب... وفيهما يُتخذ ويُعمل رفيع الكتان والثياب والشُرب والدبيقى، والمصبغات من الحلل التنيسية التى ليس فى جميع الأرض مايدانيها فى القيمه والحسن والنعمه والترف والدقه، وربما بلغت الحله من ثيابها مائتين دنانير إذا كان فيها ذهب. وقد بلغ مالاذهب فيه مائة دينار(٢٦).

وكانت الثغور الإسلامية فى مصر والشام تشبه خليه النحل لكثره المترددين عليها من المشرق والمغرب لتصريف بضائعهم، حيث كانت فواكه المواسم الأربعه تجتمع فى وقت واحد لدرجة أنها لفتت نظر الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى علق على ذلك متعجباً « كل من يُفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها شتوى، لايصدق هذا » (٢٧). وكانت مراكب الغرب تجلب معها الرقيق الذى كان يُعد أهم سلعة فى ذلك العصر، حيث كان السلاطين الأيوبيون يعتمدون عليها اعتماداً أساسياً فى تكوين الجيش(٢٨). ويصف لنا أبى مخرمه مشاهدته عن سوق الرقيق فى ثغر عدن على عهد الأيوبيين فيقول: «تُبخر الجاريه وتُعدل ويُشد وسطها بمئزر ويأخذ المنادى بيدها ويدورفى السوق وينادى عليها ويحضر التجار الفُجار يقلبون يدها ورجلها وساقها وأفخاذها وسُرتها وصدرها ونهدها، ويقلب ظهرها ويُشبر عجزها ويقلب لسانها وأسنانها وشعرها، ويبذل المجهود إن كان عليها ثياب خلعها وقلب وأبصر، وفى أخر الأمر يقلب فرجها وحجرها معاينة من غير ستر ولاحجاب»(٢٩).

وكانت المعادن الثمينه مثل الذهب والفضه والنحاس والقصدير من أهم صادرات الغرب إلى مصر (٣٠).حيث كانت سفن البندقيه تحملها إلى موانئ الدول الأيوبيه فى مصر والشام لاستخدامها فى سك العمله.

ومهما يكن من أمر فإن السلع الشرقيه والسلع الغربيه كانت جميعاً تعرض بطريقه تلفت النظر حيث كانت الفنادق تخصص مساحات مستقطعه بداخلها لإقامة هذه المعارض وكان يقام عليها المزاد الذى يترأسه السمسار وعادة يكون من العاملين فى الفندق بالإضافه إلى صاحب السلعه ولفيف من التجار الراغبين فى الشراء(٣١).

وينقل لنا بعض المؤرخين صوره حيه لما كانت عليه عمليه المزاد التى كانت تتم على النحو التالى: يرفع السمسارصوته معلناً افتتاح المزاد، وفى هذه الحاله تكون يد صاحب السلعه

ممسكه بطرف يد السمسار ومغطاه بمنديل ، بينما يقوم أعوان السمسار بالتهليل والغناء بصوت عال ذاكرين أواخر أرقام المبالغ التى وصل إليها المتزايدون، فإذا ما وصل السمسار إلى الحد الذى يرتضيه صاحب السلعه،فإنه يضغط على يد السمسار وعندها يبارك الأخير لصاحب السعر الأعلى.

على أن دور السمسارلاينتهى عند هذ الحد، بل عليه يقع عبء اتمام الصفقه بتحرير عقد البيع الذى يحدد ثمن الصفقه وشروط الدفع وشروط التسليم، ثم يقوم بإحضار الشهود العدول للتوقيع على العقد. كما أنه ملزم باستخلاص موجبات الجمارك التى تصل إلى عشرة بالمائة فى حالة البيع للسلع المألوفه. أما فى حالة بيع المعادن النفيسه مثل الذهب والفضه والجواهر فإنها لا تزيد عن خمسه بالمائه(٣٢). وإلى جانب الموجبات الجمركيه كان على السمسار أيضاً أن يستخلص أجور السمسره والترجمه، والغربله، والكرائين، والخفر التى كانت جميعاً لاتزيد عن ٤ مدّين عن كل ١٠٠ دينار(٣٣).

ومهما يكن من أمر فبعد أن ينتهى السمسارمن عملية الحسابات يقوم بتحرير صك براءة لكل من البائع والمشترى على حدٍ سواء، حتى يتمكنا من الخروج من البلاد دون عائق. ثم ترسل صوره من عقد الصفقه إلى مكتب التوثيق التابع للدائره الجمركيه موقع عليها من طرفى الصفقه واعتماد السمسار الذى تمت على يديه وفى حاله البيع بالأجل لابد للمشترى من احضار ضامن له حتى إذا أخل بالتزاماته يكون الضامن غارم.

ولقد حرصت السلطات فى الدوله على ضمان امتيازات التاجر الأوروبى. لأنها وعت أن المعامله السيئه تؤدى إلى احجام التجار عن التردد على تلك الأماكن التى أوذوا فيها. الأمر الذى يؤدى إلى تخريب التجاره، وتدمير أهم شريان من شرايين الدخل القومى. ومن خلال المعاهدات التى أبرمت بين سلاطين مصر عبر العصور الوسطى، وكذلك الشهادات التى شهد بها أولئك التجار أنفسهم نستطيع أن نوجز هذه الامتيازات التى لايمكن أن نفرد لها بالتحاليل والاسترسال خلال هذه العجاله: ففضلاً عن ضمان الحكومه لإيجاد المأوى للتجار داخل الفندق وتكفلها بنفقات التأسيس والبناء والترميم(٣٤).فإنها تكفلت بإيجاد حمام خاص(٣٥).داخل الفندق حتى يستمتع الغرباء بالنظافه الشخصيه. ولقد بلغت درجة الانسانيه حداً بعيداً لدى الحكام المسلمين حيث أنهم ضمنوا حق الأمم المسيحيه الغربيه فى اصلاح سفنهم العاطبه « فإن كل واحدٍ من القسمين يُصلح ما اختل من جَفْنِهِ ويتزود ولايمنعه من ذلك أحد ولامانع له» (٣٦).من اتمام ذلك فى ثغور السلطان وبالقرب من شواطئ دولته. أما فى حالة دخول التاجر ببضاعته إلى أرض السلطان ثم لم يتمكن من بيعها وأراد الخروج بها

(فلا يلزمهم فيه مغرم إذا ردوه للبحر) (٣٧).

هذا وقد فرضت الحكومات الاسلاميه على رعاياها من العاملين فى الدائرة الجمركيه العمل على تيسير السبل أمام التاجر الأجنبى حفاظاً على وقته. فأصدرت إلى صاحب الديوان الجمركى الأوامربسرعة انهاء اجراءات التجارة إذا أراد تاجر منهم الانصراف والسفر فعلى صاحب الديوان اجبار الكاتب لعمل حسابه وتخليصه من غير مُطال ويكتب له بذلك براءة،(٣٨) .تضمن له خلو ذمته من أية مديونيات حتى لو كان الكاتب أخطأ فلا يعادعليه حساب ما مضى وأن تكون عهدت ذلك على كاتبه، (٣٩).

والحياة اليوميه والمعاملات التجاريه يتولد عنها الاحتكاك والشغب وحفاظاً على الحقوق فقد أعطت حكومه السلطان للجاليات الأجنبيه امتياز أن يكون له محكمه خاصه داخل الفندق ويقوم القنصل بالفصل فى المنازعات التى تنشأ بين أبناء الجنسيه الواحده، أما فى حالة وقوع النزاع بين فرنجى ومسلم فإن قاضى الدائره الجمركيه هو المختص. ولقد خولت الامتيازات لقناصل الدول حق الذهاب إلى بلاط السلطان مرتان شهريا. إما للتشاور حول طبيعة العلاقات بين الدولتين أو لأستئناف قضايا رعاياه أمام السلطان(٤٠) .وفى كل الحالات تتحمل الدوله المُضيفه نفقات اعالة القنصل والعاملين معه.

وإذا كانت المعاهدات واتفاقيات الصلح قد نظرت لأمور الدُنيا بنظرة شاملة، فإنها نظرت لأمورالآخرة نظرة أدق إذا حرصت جميعاً على مراعاة حقوق التاجرالذى يموت ويترك دونه تركه، فالجوانب الدينيه والانسانيه حددت أن تكون التركه للوارث بشهادة الشهود، وإذا لم يتيسر ذلك فإنها تنتقل إلى قنصل دولته للتصرف فيهاعلى الوجه اللائق(٤١).

ثانيا :الجوانب السياسيه:

كانت الثغور البحريه عصر السلاطين الأيوبيين تلعب دوراً سياسياً هاماً،خاصة فيما يمس الجانب السلمى من هذه العلاقات. وكذلك فيما يخص الجانب الحربى منها .فعلى المحور السلمى، كانت المنافذ البحريه المحور الأول لهذه العلاقات منذ أن تطأ قدما السفير الأوروبى أرض السلطان إلى أن يخرج منها.وتمدنا مصادر العصور الوسطى بالمعلومات الوفيره التى تُوضح مراسم استقبال السفاره فى الميناء والتعرف على أسباب الزياره وكيفية ابلاغ السلطان بها وماكان يقدر لها من مُوجبات الضيافه وحُسن الاستقبال .فعندما كانت السفاره تأتى إلى الميناء كان المباشرون يصعدون إلى السفينه لاستقبال السفير(٤٢) .ويتعرفون على أسباب زيارته ثم يصطحبونه إلى دارالضيافه حيث يكون قاضى المدينه فى استقباله فيُمضى فترة الضيافه في هذه الدار حتى يتم الاتصال بالسلطان فى القاهره حيث كانت ترسل البطائق مع

الحمام الزاجل(٤٣).وفى خلال هذه المده التى تقضيها السفاره فى الميناء، كان نائب الأميرعلى المدينه يقدم للزائرموجبات الضيافه سواء مايتعلق بالمأكل والمشرب ووسائل الترفيه. وكانت السفاره تتبادل الهدايا مع نائب السلطان على المدينه وصاحب دار الضيافة.

وعندما يصل الرد السلطانى بالإيجاب.يقوم أميرالمدينه بتجهيز السفاره بصحبة الترجمان والتشريفه،ويزودها بكميات وفيره من الأطعمه تكفى مدة الرحله بما يليق مع الضيوف والدوله القادمين منها.وعندما تصل السفاره إلى القاهره تنزل فى ميناء بولاق ومنها تصعد إلى دار الضيافه حيث يكون المهمندار (٤٤).وعند ذلك يمهد الترجمان للقاء السلطان ويقوم السفير بتقديم هداياه وهدايا دولته بمايليق بمركز السلطان لدى دولة المبعوث. وبعد أن تتم المقابلة وتنجز أعمال السفارة يعود الترجمان لأصطحاب السفارة إلى الميناء الذى وردت منه بعد أن يقوم السلطان بتزويدها بالهدايا القيمة بما يليق وصاحب هذه الدولة(٤٥). وكان السفير يحصل على هدايا شخصية له من السلطان أو المهمندار. وكانت فى بعض الأحيان تتكون من ، قِطَط سيامى، بغبغاوات ، عطور، أحجار كريمة،(٤٦).

وفى الثغر تتم المراسم النهائية لتوديع السفارة إلى حيث يأخذها المركب للعودة إلى الدولة التى أتت منها. ومن خلال ماسبق نجد أن الثغر هو المحك الأول الذى تقع على أرضه مراسم استقبال الزوار الأجانب وتجهيزهم إلى حيث مقابلة السلطان. وهو المرآة التى تعكس مدى تحضر الدولة نتيجة للإجراءات التى تتخذها الإدارة هناك ، مع هؤلاء الأجانب وتسهيل سبلهم حتى تتم مهمتهم داخل الدولة .

وفى الميناء تتكون الفكرة الأولى لدى أعضاء السفارة الأجنبية عن دولة السلطان من حيث نظافة المدينة والنواحى الجمالية فيها كتنسيق ميادينها وحدائقها وترتيب إداراتها وجدية العاملين عليها.

وكانت حكومة السلطان تتعمد استعراض الجيوش أمام السفارات الأجنبية استعراضاً للقوى وافتخاراً بمالديها من جيوش ومعدات . وفى الأعم الأغلب كى تبث الرعب فى قلوب من تَسول له نفسه الإعتداء على الدولة .

على أنه لم تقتصر مهمة الثغور البحرية فى الجوانب السياسية السلمية على استقبال السفارة والسفراء، بل كانت تختار كمواقع صالحة لتوقيع المعاهدات التجارية ، ومعاهدات السلام بين حكومة السلطان ، وبين الدولة التى تربطها علاقات سياسية أو اقتصادية مع الدولة فى ذلك الوقت(٤٧). وفضلاً عما سبق كانت الثغور مستهدفاً لعمليات التجسس على الدولة ، من حيث تحصيناتها وقوة الحامية الموجودة وعدد سفن الأسطول. فهذا هو لودولف

من سودهيم يصف لنا الإسكندرية فيقول « إن المدينة تبدو لناظريها أنها حصينة ، ولكن العكس هو الصحيح فيمكن اختراقها بسهولة»(٤٨).

وكانت أعمال التجسس تتم فى أوقات السلم ، حيث كان الأعداء يجندون بعض التجار الأوروبيين أو الرحالة من أبناء جِلْدتهم للقيام بهذه المهمة متخفين وراء أعمالهم التجارية أو زياراتهم . فكانوا يقومون بجمع المعلومات الخطيرة التى تخص الدولة ، ثم يرسلونها مع بعض المسافرين – فى تقارير ملتهبة – إلى الدول الأوروبية التى تُزمع القيام بعمل عسكرى ضد دولة السلطان(٤٩).

ولم تكن أعمال التجسس قاصرة على التجارة أو الرحالة الأجانب بل كان رجال الدين المسيحيين الكاثوليك – وخاصة المعيدين فى الأديرة أو القائمين على كنائس الجاليات الأجنبية – يشاركون مشاركة فعالة فى هذا الأمر، وكانوا يعتمدون على التصاريح التى تمنحها لهم السلطات المحلية فى الدولة بحُرِّية التنقل لإنجاز مهامهم(٥٠) . أضف إلى ذلك أن قناصل الدول الأجنبية الذين كان يخول لهم حرية التنقل بين الثغور والقاهرة للوقوف على أمور رعاياهم أو الدفاع عن مصالحهم أمام السلطان، كانوا من أخطر العناصر على دولة السلطان فى هذا الأمر(٥١).

وإذا كان ماسبق يمثل الواقع السلمى للعلاقات السياسية داخل الثغور البحرية ، فإن العمليات الحربية التى كانت تقع على أراضى الدولة من جانب الأعداء كانت تدور فى الثغور. حيث أن وسائل المواصلات فى ذلك العصر حددت طبيعة الهجوم خاصة أن الغرب كان لايرتبط مع الشرق بحدود برية بل كان البحر الأبيض المتوسط يفصل بمسطحاته المائية الشاسعة بين الشرق والغرب، حتى فى حالة لجوء الدول الغربية إلى استخدام الطريق البرى عبر شبه جزيرة البلقان كان عليهم استخدام السفن فى كل الأحوال.

وكانت الثغور الواقعة على الساحل الشمالى للدولة مستهدفة بصفة مستمرة من قِبل العدو الأوروبى، بل أن الدعاة الصليبيين كانوا ينادون دائماً باحتلال الثغور البحرية الواقعة على البحر المتوسط واستبدالها بالأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين(٥٢).

ولايخفى علينا مافعله الفرنج فى ثغر دمياط مع بداية عصر صلاح الدين الأيوبى، فيقول أبوشامة فى حوادث سنة ٥٥٦هـ/ م.« كان فرنج الساحل لما مَلك أسد الدين مصر قد خافوا، فكاتبوا فرنج الأندلس وصقلية يستمدونهم ، ويعرفونهم ماتجدد من مُلك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح، واستعدوا على النزول على دمياط ظناً

منهم أنهم يملكونها، ويتخذونها ظهراً يملكون به مصر، فحاصروها وضيقوا،(٥٣).

والأمر واضح جليّ فمن خلال ماعرضه أبوشامه في تاريخه نجد أن الفرنج الذين كانوا يقيمون – وقتئذ – في الأراضي الشامية قد هالهم وأفزعهم حدث قيام دولة قوية في مصر فهم يعلمون جيداً أن مجرد قيام مثل هذه الدولة ، وعلى هذه الدرجة من القوة سوف تزعزع وجودهم وتقلق سباتهم بل وسوف تعمل على استئصال شأفتهم من الوجود نهائياً، فلقد صدق توقعهم عندما قام صلاح الدين باشعال شرارة حرب التحرير ضد الوجود الصليبي في الشرق وماحققه من انتصارات كان نتيجتها استرداد البيت المقدس من أيديهم سنة ١١٨٧م.

لذلك نجدهم قد راحوا يدبرون المؤمرات ويستصرخون أبناء جلدتهم في الوطن الأم لتدمير الدولة الجديدة في مصر فلم يجدوا ضالتهم لتحقيق ذلك إلا باحتلال ثغر دمياط الذي كانوا يعدونه أحد مصادر الدخل الذي يمد الخزانة السلطانية بالمال الوفير. وأن احتلاله سوف يمهد إلى أضعاف الدولة وعندئذ يمكنهم السيطرة على الشرق كله.

على أن هذا الأمر لم يكن الأول والأخير من نوعه، بل إنهم قاموا في سنة ٥٦٩هـ / بالاعتداء على ثغر بانياس(٥٤) في بلاد الشام. وفي سنة ٥٧٠ هـ / نازل الفرنج ثغر الإسكندرية ، وكانوا في ستمائة قطعة م'.ين شاني(٥٥) وطراده(٥٦). وبطسه(٥٧). وغير ذلك وكانوا في ثلاثين ألف على ماذكر،(٥٨).

هذا وقد توالت أعتداءات الدول الأوروبية على سواحل مصر والشام. ففي عهد الملك الكامل محمد الأيوبي قامت الأساطيل الفرنجية بتجديد العدوان على مدينة دمياط بقيادة حنا دى برين، وفي هذا الصدد يقول ابن واصل في تاريخه : ولم يزل الفرنج يضايقون دمياط، ويقاتلون أهلها بجميع آلات القتال حتى نفذ ماعند أهلها من الأقوات، واشتد الغلاء بها جداً، واشتد بأهلها الجوع حتى مات أكثرهم وعجزوا عن الحركة والمدافعة ، ووصل إلى الفرنج نجدٌ من البحر وكثر الوباء في أهل دمياط، وضعفوا عن حفظها، فحيئذ. هاجم الفرنج البلد على غفلة من أهلها، واستولى الفرنج عليهم واسترقوهم، وجعلوا الجامع كنيسة واشتد طمع الفرنج حينئذ – في ملك الديار المصرية ، وظنوا أنهم يملكون بملكها البيت المقدس وسائر بلاد الشام،(٥٩).

على أن الصليبيين لم يكفوا عدوانهم على الثغور الأيوبية بل إنهم واصلوا أعمالهم الإجرامية ، وليس أدل على ذلك ماوقع في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . حيث يحدثنا المقريزي في تاريخه عن ذلك فيقول في حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

وصلت مراكب الفرنج البحرية وفيها جموعهم العظيمة صحبة ريد أفرانس – ويقال له

الفرنسيس – واسمه لويس ... وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله فأرسوا فى البحر بإزاء المسلمين. فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر، خرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل، ولم يبق بالمدينة أحد البتة ، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة وفروا إلى أشموم مع العسكر، وهم حفاة عراة جياع، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء»(٦٠).

ومهما يكن من أمر فقد دللت روايات المؤرخين جميعاً أن الثغور الواقعة على السواحل الشمالية للدولة الأيوبية كانت مطمعاً لدى جميع دول الغرب الأوروبى الذين وعوا أهمية تلك المنافذ بالنسبة للسلاطين المسلمين فى مصر وما تدره عليهم من عائدات مالية ضخمة كانت تساهم فى ايرادات الدولة بنصيب وافر، وأرادوا باحتلالهم تلك المنافذ قطع الشريان الحيوى لهذه الدولة ، وبذلك تعجز حكومة السلطان عن تجهيز الجيوش وإمدادها بالمعدات الحربية والأزودة(٦١). وبذلك يكونوا قد نجحوا فى تحقيق هدفهم الأسمى ألا وهو احتلال مصر ذاتها الأمر الذى يسهل عليهم احتلال دول الشرق جميعاً(٦٢).

لقد فرضت طبيعة العصر – وما كانت تنطوى عليه العلاقات بين الشرق والغرب الأوروبى – على الحكام المسلمين أن يبذلوا جهودهم فى توفير الأمان للدولة ، ورد عادية المعتدين، فقاموا بالعمل على تحصين الثغور، وتقوية قلاعها، وبذل الأموال لتوفير حاميات قوية للدفاع عنها. ويتضح ذلك جلياً من خلال مانفذه هؤلاء السلاطين حيث ركزوا جهودهم على محورين هامين المحور السلمى والمحور الدفاعى:-

أولاً: المحور السلمى :-

ويبدأ ذلك الإجراء منذ اللحظة الأولى لدخول السفن إلى المرسى حيث تنزع عنها القلوع والأسلحة والمجاديف أينما وجدت(٦٣). وتتم عمليات التفتيش الدقيق للبحث عن الأموال أو الأسلحة أو المواد الفتاكة التى يفترض أن تكون فى صحبة الأجانب، وتدلنا المقارنة التالية – عن الاجراءات التى كانت تتخذ مع الفرنج ومثيلاتها التى كان يتعامل بها التاجر الشرقى – على مدى حرص هؤلاء الحكام على مصالح الدولة : ففى حالة نزول التجار الأوروبيين فى الفنادق، كان الحكام المسلمون يفترضون فيهم سوء النية . الأمر الذى جعلهم يعينون حراسات شديدة على تلك الفنادق، لدرجة أنهم كانوا يغلقونها عليهم ليلاً وأثناء صلاة الجمعة والأعياد، والاحتفالات الدينية . وكانت تلك الاجراءات تتخذ توجساً وخيفة من غدر هؤلاء الأجانب الذين كانوا يحرصون على تحين الفرص للإنقضاض على الدولة على حين غفلة من أهلها(٦٤).

أما التاجر الشرقى فبمجرد أن تنتهى الاجراءات الجمركية ويحصل على براءة الذمة

على معاملاته، كان له مطلق الحرية فى المبيت فى أى خان من الخانات التى كانت منتشرة فى أرجاء الميناء. ومن الجدير بالذكر أن تلك الخانات كانت لاتوضع عليها أية حراسات. كذلك كان يمكن للتاجر الشرقى النزول لدى أحد معارفه فى المدينة(٦٥).

وفى حالة إقامة التجار الفرنج أو ترحالهم، فإن إقامتهم كانت محدودة بمدة لاتزيد على ستة شهور(٦٦). أما ترحالهم فكان لايتجاوز حدود المدينة ، وفى أحيان نادرة كان التاجر يتجاوز إلى القاهرة، أو المزارات المسيحية المقدسة ، ولايكون ذلك إلا بتصريح(٦٧).

وعلى النقيض من ذلك كان التاجر الشرقى يستطيع الإقامة على أراضى الدولة إلى ماشاء الله، وكذلك يستطيع التجول فى البلاد طولاً وعرضاً، كما يمكنه تجاوز الحدود الدولية والعودة إليها فى حرية تامة طالما كان مسدداً للرسوم الجمركية على سلعه وممتلكاته(٦٨).

ثانياً: المحور الدفاعى :

كانت الدولة الأيوبية حريصة على توفير الحماية الكافية لجميع أراضيها بما فيها الثغور الواقعة على البحر المتوسط. ومن مظاهر حرصها أن السلاطين قاموا بتعيين حامية عسكرية على كل ثغر، وأمدوها بالأسلحة اللازمة ، فكانت الثغور تضم بين مرافقها الأساسية خزانة السلاح (الزرد خاناه) ، وكان يتولى إدارتها (شاد السلاح خاناه) ورتبته أمير عشرة ، وشروط تعيينه أن يكون أميناً ناهضاً، صاحب فكر رشيد ورأى سديد، خبيراً بأنواع السلاح واستعمالاته(٦٩). هذا وقد خصص الحكام المسلمون الموارد المالية للإنفاق على السلاح والقائمين عليه من الأحكار خاصة فيما كان يعرف (بحكر خزائن السلاح) وجزء من متحصلات الضرائب كما أوقفوا عليها الأوقاف(٧٠).

وفى مجال الإنشاءات اهتم الأيوبيون بإنشاء القلاع والحصون والأبراج على الثغور لصد الأعداء عند اللزوم. وطبقاً للوصف الذى قدمه لنا ابن شاهين فى زبدته التاريخية يمكننا التعرف على نظام القلاع فترة العصور الوسطى فيقول : ثغر دمياط المحروس.. بالقرب من البحر المحيط وهو من أعظم المين ، يرد إليه كثير من المراكب.. وهناك بُرجان أحدهما بالثغر المذكور، والآخر تجاه البر الغربى على بحر النيل. والمراكب الواردة تدخل من بين البرجين، وهناك سلسلة موضوعة لئلا يدخل مركب إلا بإذن صاحب الثغر(٧١).

هذا وقد أورد رحالة العصور الوسطى وشهود العيان وصفاً دقيقاً لتحصينات مدينة الإسكندرية ، وما كانت عليها زمن الأيوبيين من قوة ومنعه . غير أننا فضلنا الوصف الذى قدمه ابن شاهين خاصة أنه كان من رجال الدولة ، وحاكماً لهذه المدينة فى فترة لاحقة لما

يتصف قوله بالدقة والتفصيل والثقة ، حيث قال :- « هو أجل ثغور الإسلام وأعظمها، ويشتمل على سورين محكمين، بها عدة أبراج يحيط بها خندق يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند الضرورة ، وللثغر أبواب من حديد، وبأعلى الأبراج مجانيق، ومكاحل ، وفى وقت الضرورة يعلق على كل شرفة قنديل، وهذا الثغر فى غاية التحصين، وعلى كل برج منه أعلام وطبلخاناه. وأبواق وحرسيه يشهر ذلك وقت الضرورة(٧٢) . ولعلنا لسنا فى حاجة إلى التعليق على ماذكره هذا المؤرخ فالأمر فى منتهى الوضوح . لكننا يمكننا أن نضيف معلومة جديدة إلى ماقاله ابن شاهين وهو أن ماذُكِر سابقاً ذَكَره بعينه الراهب القس لودولف من سودهيم حتى أن وصفه يطابق وصف ابن شاهين فى كل المعلومات غير أنه فى نهاية حديثه الوصفى قال محفزاً مخاطبيه أن المدينة يمكن اختراقها بسهولة .

ومهما يكن من أمر فإننا بزيارة واحدة إلى القلعة التى أنشأها السلطان المملوكى قايتباى (٨٧٢هـ/١٩٦٨ :٩٠٩١هـ/١٤٩٦م) بالإسكندرية نجد أن النظام الدفاعى للثغر يدل على قدرة هندسية عسكرية برع فيها القائمون على الإنشاءات العسكرية وقتئذ. فالقلعة كانت مبنية على لسان ممتد داخل البحر ، وهى مبنى ضخم يدل من الخارج على الصلادة والشموخ ، وفى الداخل كانت هناك غرف خصصت لسكنى الجنود وعائلاتهم ، وإلى جانب الغرف كان هناك المخبز والطاحونة والمسجد، وعلى الزوايا الثلاث المطلة على البحر كانت هناك المزاغل المخصصة لقصف الأعداء بالمكاحل. وكذلك الجزء الأعلى من جسم القلعة نجد الجسور والمحاور التى كان رماة السهام يستخدمونها فى الضرب والمناورة .

وإلى جانب القلاع كانت هناك الرُبط(٧٣). التى خصصتها الحكومات زمن سلاطيين الأيوبيين لسكنى المتطوعين للدفاع عن الثغور ضد غزوات الفرنج المتكررة . وكان جلّ سكانها من المغاربة ومهاجرى الأندلس الذين وهبوا أنفسهم للرباط فى سبيل الله انتقاماً من العدو الصليبى الذى شردهم من بلادهم(٧٤).

هذا وقد قامت حكومة السلطان فى مصر بالعمل على نشر قوات استطلاعية بين الثغور وبعضها، مهمتها مطاردة سفن القرصان التى كانت تهدد خطوط الملاحة البحرية فى البحر المتوسط، وهذا النظام الدافعى كان يعرف باسم (التجريدة البحرية)(٧٥). كما أنهم استحدثوا نظاماً كان الأول من نوعه حيث كانوا يستخلصون قواعد بحرية خارج القطرين خاصة فى أملاك الد ولة الحفصية(٧٦). كانت مهمتها مراقبة سفن العدو قبل خروجها أو عند دخولها للمياه الإقليمية للدولة.

وإذا كان السلاطين المسلمين وقتئذ قد حرصوا على النواحى المادية واعطوها الاهتمام

الزائد فإنهم كانوا على وعى أن المادة وحده‌ا لاتصنع النصر ولكن الرجال بمعنوياتهم هم القادرون على إنجاز المعجزات، لذلك قام هؤلاء السلاطين بعمل زيارات مفاجئه للثغور للعمل على رفع معنويات الناس هناك والوقوف على الاستعدادات والاستحكامات(٧٧) .

الخاتمـــــة

إن موضوع دراسة العلاقات بين الشرق والغرب من خلال الدائرة الجمركية من الموضوعات الهامة التى تتناول الجوانب السلمية والجوانب الحربية . وفى الحالتين كانت الثغور الإسلامية على البحر المتوسط محور العلاقات بين الشرق والغرب. على أرضها كانت أسمى العلاقات الإنسانية التى تمثلت فى تبادل المنافع بين الناس بعضهم والبعض الآخر، حيث التقت بضائع الشرق وبضائع الغرب. وكان التجار ينهلون منها لسد حاجات الشعوب عند الجانبين. وعلى أرض الثغر كانت الناس تتلاقى بمختلف أهوائهم ومشاربهم ، حيث العادات والتقاليد والأعراف المختلفة . وتبدو عظمة القائمين على الدولة والثغور الإسلامية أنهم كانوا يستوعبون الجنيسات العالمية المتعددة فى الأعراف والتقاليد واللغات، بصدر رحب حكمتهم منظومة حضارية عظيمة إن دلت فإنما تدل على مدى تحضر هؤلاء الحكام الذين كانوا يديرون دفة البلاد مستمدين روح السماحة والعدل من الشريعة الإسلامية .

هذا وقد استلزمت المعاملات التجارية التى كانت تدور على أرض الثغر ضرورة إنشاء نظام محاسبى دقيق يسجل ويثبت لكل ذى حق حقه . والعجيب فى هذا الأمر أن العقود التى أنشأها رجال القانون المسلمين كانت تستوعب أفكار جميع التجار من جميع الجنسيات. وكانت كفيلة بالحفاظ على حقوق التاجر – مهما كانت جنسيته – لدى الغير. أما نظام تحصيل الأجور على المعاملات التجارية ، فكان فى غاية الدقة ، حيث كان السمسار هو المسؤول الوحيد أمام هيئة إدارة الميناء عن ذلك دون تفريط أو عودة على المتعاملين على الصفقة . أما براءة الذمة التى كانت تعطى على الصفقة ، كانت تخلى سبيل التاجر، حتى فى حالة عودته إلى الميناء مرة أخرى فى موسم تجارى جديد ، فلا يصدم بفاتورة مديونيات تنغص حياته. وتجعله يهرب ببضائعه إلى أسواق خارج الدولة .

وعلى المحور الحربى كانت الثغور بما تُغله من عائدات على مختلف الأنشطة التى كانت تمارس فيها لتصب فى خزانة السلطان. أثارت حفيظة الأعداء وسال لها لعابهم ، فراحوا يدبرون المؤمرات وقاموا بعدة محاولات لتدمير الاقتصاد المصرى بشتى الوسائل، سواءً فيما تمثل فى حملات صليبية أو قرصنة بحرية . الأمر الذى أثر على التجارة فى الدولة ، وأدى

إلى إندثار عدة ثغور ، وتنحيها عن مزاولة نشاطها التجارى والحضارى، وخير مثال على ذلك ماحدث بالنسبة لثغر دمياط، ومدينة تنيس التى إندثرت من الوجود متأثرة بطعنات غادرة على يد الفرنج .

وكان إندثار هاتين المدينتين الهامتين أحد الأسباب فى ظهور ثغر الإسكندرية وتحول الأنظار إليه فى العصر المملوكى فعاش قرن ونصف من الزمان. ومهما يكن من أمر فإن الثغور (الدوائر الجمركية) كانت محور العلاقات بين الشرق والغرب.

الهوامش

١- مدينة مسورة مبنية على ضفاف البحر الشامى بها ثلاثمائة بستان ومتنزهات وبها أسواق وفنادق ، وبها جماعة كبيرة من التجار أصحاب الأموال، وبها برجين شاهقين فى الهواء، وبينهما سلسلة من الحديد تقفل كل ليلة فتمنع مراكب الفرنج من العبور فى النيل إلى الديار المصرية – ابن دقماق – الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ٥، ص ٨٠، السيوطى تاريخ الخلفاء، جـ ٢، ص ٢٦٦ .

٢- بلدة ذات صهاريج على ساحل البحر وبها مينة حسنة مفضلة ، عليها سلسلة بين برجين لايدخلها أحد ولايخرج منها حتى تحط له السلسلة . الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: كتاب تقويم البلدان، ص ٢٥٦ ، ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار، ص ٦٠ .

٣- أبى مخرمة : تاريخ ثغر عدن، جزءات ، ليدن سنة ١٩٢٦ .

٤- ويعمل بهذا الثغر من الأقمشة العجيبة التى لاتوجد فى غيره ، ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ، ص ٤١ .

5- Heyd : Histiore de Commerce de Levant au Moyen Ages. Tom.II. P.61.

٦- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٠ .

٧- يضيف هذا الرحالة ملاحظة على المباشرين من رجال الجمارك فيقول ، من أشنع ما شاهدناه من ذلك ، خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة ، وفى أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة ، فيصعدون إلى المراكب استكشافاً لما فيها فلا يتركون عكماً ولا غرارة إلا ويتخللوها بتلك المسال المطونة مخافة أن يكون فى تلك الغرارة أو العكم شئ غيب عليه من بضاعة أو مال. وهذا أقبح مايؤثر فى الأحاديث الملحدة ، وقدنها الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف لما يرجى بستر الصون دونه من حال لايريد صاحبها أن يطلع عليها، أما استحقارا أو استنفاساً دون بخل بوجبه ، وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لايعرفه ولوعرفه لأمر بقطعه، كما أمر بقطع أعظم منه. الرحلة ، ص ٦٠ .

٨- خطأ فى النسخ لأن ابن جبير كان على معرفة تامة بأخبار صلاح الدين حسبما جاء فى الحاشية السابقة .

٩- ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٤ .

١٠- نوع من أنواع السفن الصغيرة كانت تستعمل فى البحار الشرقية ، حيث وجدت على سواحل قاليقوط وهى ذات قيعان مستوية ، كما وجدت على الساحل العربى ومما يدل على سعة انتشاره رؤية ابن بطوطة له ويسميه الصنبوق، وعندما أتى إلى ظفار يذكر أنه متى وصل مركب من الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل، وصعدوا فى صنبوق إلى المركب: ابن بطوطة الرحلة ، ص ١٢٦ ، ص

١٦٩، ص ١٧٢. وشوقى عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية، ص ١٥١.

١١- أبى مخرمة : تاريخ ثغر عدن، جـ ١، ص ٥٨.

12- Piloti: Op.Cit., P.58.

13- Loudulph: Of Schum: Op.Cit., P.48.

14- Tafur: Travle of Pero Tafur. P.72.

١٥- قنصل النوبة كان يختار من بين قناصل الدول الأوروبية لتمثيل جميع القناصل المتواجدين فى الثغر، ويكون تحت أمرته مندوبو القنصليات جميعاً. وكان هذا الأمر يتم بالاقتراع.

16- Fabri: The Voyage of Flix Fabri. Tom. III. P. 144 & Heyd: Op.Cit. Tom. II. P.422.

- Heyd: Op.Cit., Tom. III. P82. & Thenaud Levoyage De free Jehan Thenaud P.22.

١٧- الفندق كلمة أصلها يونانية Pandokeion وقد حرفت عند استخدامها فى الإيطالية فترة العصور الوسطى كى تكون Fondigo.

- Dozy et Engelmann: Glo Ssaire Des mots Espagnols derives De l'Arabe. 1866.

-18 Wiet G: Le precis DeL'Histiore Del' Egypte. Tom. II. PP.274 :275.

١٩- ويباح لهم أن يأتوا من مالهم كوشه للخبز وكنيسة لتعبدهم ولايسكن معهم أحد من غير جنسيتهم إلا برضاهم:

Amari O: diplomi Arabi. P.175. & Harff:Op.Cit. P.94

٢٠- يقو' ناصر خسرو فى رحلته : كانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لامن الجص والأجر والحجارة، وهى بعيدة عن بعضها، فلاتنمو أشجار بيت على سور بيت آخر. الرحلة - ص ١٠٦.

21- Piloti: L'Egypte au Commencement P.58.

٢٢- هواوى؛ س : فى طلب التوابل، ص ١٦.

٢٣- أفاض رحالة الغرب فى ذكر حديقة البلسان التى كانت فى ضاحية المطرية قرب القاهرة، وأنشأوا حول أهميتها العلاجية الأساطير وقالوا أن زيتها يشفى من كل داء : ابى حوقل، صورة الأرض. Loudulp von Schums

24- Heyd: Op. Cit. Tom II. p.684.

٢٥- ابن شاهين : المصدر السابق، ص ٤١.

٢٦- صورة الأرض، ص ١٤١.

٢٧- الرحلة . ص ١١٩ .

28- Piloti : Op.Cit. P.14.

٢٩- تاريخ ثغر عدن ، جـ ١ ، ص ٦٦ .

30- Mass. Latrie : relations Commerce De Afrique. P466.

31- Leon L'African : Description D'Africa Tom II. P.94.

٣٢- عمل الحكام المسلمون على تخفيض عائدات الجمارك على المعادن النفسية والجواهر لهدفين الأول: تشجيع التجار للإكثار من جلب هذه المعادن للإستفادة بها داخل دور الضرب. الثانى هو ضمان عدم قيام التجار بتهريبها وبذلك تكون الدولة قد استفادت.

٣٣- معاهده تجارية من القرن الخامس عشر - مجلة المجلة عدد سبتمبر سنة ١٩٦٠ .

٣٤- وعلى صاحب الديوان أن يمكنهم من فندقهم .. ويفرش ويصلح جميع مافيه الأصلاح ويحصن من غير أن يلزمهم فى ذلك شئ. -Amri: Op.Cit. P.174.

٣٥- كانت الحمامات الفندقية مقصورة على التاجر الأوروبى أما التاجر الشرقى عموماً فكان له الحق فى ارتياد الحمامات العامة داخل المدن دون أدنى اعتراض.

36- Ibid. Op.Cit., P.171

37- Ibid P.175.

38- Ibid P.175.

39- Ibid P.175.

40- Ibid P.176.

41- Ibid. P.171.

٤٢- كنت مجموعة التشريفة التى تستقبل السفراء الأجانب فى الثغور تتكون من أمير وعشرة جنود.

- Trevisan. D. Voyage Magnifique Ettre Illustre Chevalier Et pyocaurateur De saint-Marc Domenico Trevisan. P.I.

43- Tafur: Op.Cit. P. 72.

٤٤- المهمندار : صاحب هذه الوظيفة يقوم بلقاء الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث فى القيام بأمرهم والأسم مركب من لفظين فارسيين أحدهما مهمن بفتح الميم ومعناها الضيف والثانى دار ومعناها ممسك والمعنى إجمالاً القائم على أمره. القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٥٩ .

45- Trevisan: Op.Cit. P.187.

46- Tafur : Op.Cit. P.102.

٤٧- مجهول : معاهدة تجارية ٤٨ .

48- Loudulph : Op.Cit. P.71.

٤٩- يقول وليم من ميشو فى قصيدته الطويلة التى يصف فيها عدوان القبارصة على الإسكندرية : أن برفنسال من كولونى زار سوريا والإسكندرية وجميع القطر المصرى وأمد القادة الصليبيين بالمعلومات عن تلك الجهات قبل قيام الحملة مما أفادهم وسهل مهتمهم الهجومية ضد الإسكندرية .

- De Machaut : Prise De Alexandrie. P.61.

٥٠- راجع كتابات لودولف من سودهيم وماكتبه عن ثغر الإسكندرية وتحصيناته ، ومدينة القاهرة وقوة جيش السلطان خلال رحلته . Loudulgh of Schums. Op.Cit.

٥١- راجع رحلة أمانويل بيلوتى الذى تولى أعمال القنصلية فى الإسكندرية وكان أحد المقربين إلى سلطان مصر، ثم قام بعمل إحصائية للجيش المصرى ، ونقاط قوته وضعفه ثم أرسلها فى تقرير أثبت أهمية القاهرة بالنسبة للعالم الإسلامى وإن السيطرة عليها تجعل الشرق يخضع للسيطرة الغربية بسهولة . Piloti: Op.Cit.

٥٢- قال رامون دى لول أن احتلال مدينة دمياط يمكن جنود الرب من استبدالها بمدينة بيت المقدس كما حدث فى عهد الملك الكامل الأيوبى.

- Ramon de Lull : Liber De fin. P.41.

٥٣- أبوشامة : عيون الروضتين ، ق١ ، ص ٢٩٦ .

٥٤- اسم لبلدة صغيرة ... وهى على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب والصبيبة اسم لقلعتها وهى من الحصون المنيعه، قال العزيزى ومدينة بانياس فى لحف جبل الثلج وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالعمامة لايعدم منه صيفاً ولاشتاء. الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل. كتاب تقوم البلدان ، ص ٢٤٩ .

٥٥- الجمع شوانى : وهى السفينة الحربية الكبيرة وهى تسير بمائة وأربعين مجدافا وفيها المقاتلة والجدافون . ابن مماتى قوانين الدواوين . ص ٣٤٠.

٥٦- سفينة حربية كبيرة كانت تستخدم فى حمل الخيول والفرسان وأكثر مايحمل فيها أربعون فرسا : الدخيلى السفن الإسلامية ، ص ٩١.

٥٧- ويقال أحياناً بطسه والجمع بطسات : مركب للحرب والتجارة وهى سفينة كثيرة القلوع قد يصل عدد القلوع فى البطسه الواحدة أربعين قلعاً: الدخيلى : المرجع السابق، ص ١٤..

٥٨- ابن شداد : النوادر السلطانية . ص ٨٠.

٥٩- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب. جـ ٤ ، ص ٣٢. ومن المؤلفات الحديثة حول هذا الموضوع راجع : عمران محمود سعيد ، الحملة الصليبية الخامسة على مصر١٢١٨/١٢٢١م. دار المعارف : ١٩٨٥م.

٦٠- السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٣ : ص ٣٣٥.

61- Sanotto : Marino : Secrets for True crusaders to Help Them to recover the Holy land. P.48.

62- Piloti : Op. Cit., PII.

63- Flix Fabri : Levoyage En Egypt. Tom. II. P. 724.

٦٤- ابن واصل : المصدر السابق، ص جـ ٤ ، ص ٣٣.

٦٥- أبى مخرمة : تاريخ ثغر عدن ، جـ ١، ص ٥٨.

66- Reinoud : Traites De Commerce Jouramal Asiatique tom.IV.PP. 22. 51.

67- Harff : Op. Cit., P. 92.

68- Amari: Op. Cit. P. 191.

٦٩- مجهول: خزائن السلاح فى عهد الأيوبيين والمماليك ، تحقيق نبيل عبدالعزيز، ص ٩:١١.

٧٠- نفســـه ، ص ١٠.

٧١- ابن شاهين، المصدر السابق، ص ٣٥.

٧٢- نفسه ، ص ٤٠ . وهذا الوصف قدمه لنا الراهب الألمانى الذى كان فى مهمه تبشيريه فى دول الشرق، راجع . Loudulph of Schums

٧٣- الرُبط مفردها رُباط . مبدى كانت الدولة تخصصه لأبناء السبيل، وكان الرباط مزود ببرج من الحجارة خصص لوقيد النار عند ظهور العدو فى البحر تصل ستة أميال. وكان المجاهدون يرابطون فيه للدفاع عن البلاد. الإدريسى. نزهة المشتاق ، ص ١٩٨ ، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٤. وعن الرباط راجع محمد توفيق بليع : نشأة الرباط وتطوره واهمية المرابطة فى تاريخ المسلمين - مقال فى دراسات أثرية تاريخية - جمعية الأثار اسكندرية ، عدد ٢ سنة ١٩٦٨.

٧٤- راجع : سالم والعبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ، فى حوض البحر المتوسط. جزءان. م شباب الجامعة، ١٩٧١.

٧٥- التجريدة : نظام إستطلاعى دفاعى تقوم به مجموعة من المراكب الخفيفة بصفة منتظمة لمراقبة البحر ومطاردة القراصنة . وهناك تجريدة برية تقوم بنفس المهام على البر للربط بين الموانى وحفظ السواحل من الهجوم المفاجئ. عن هذا راجع ابن إياس بدائع الزهور ، جـ١، ص ١٧.

76- Makhairas: L. Recital Concerning The Sweet Land of Cyprus 2 Vols. Vol. I. P.203.

٧٧- يقول أبوشامه : خرج (السلطان صلاح الدين) فى شعبان ، سنة ٥٧٢هـ إلى ثغرى دمياط والاسكندرية وشاهد ما استجد من السور الدائر، وأراد أن لايخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين فرأى الأسطول ، وقد اخلقت سفنة ، وتغيرت آلاته، فأمر بتعميره وجمع له من الأخشاب والألات أشياء كثيرة ، وكان له بدمياط بنى كثيره غير الأسطول.

مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية



الحرمان الأسرى وآثاره على توكيد الذات والمهارات التوكيدية

(دراسة مقارنة بين عينتين من الذكور من طلاب المرحلة الثانوية بمكة المكرمة)

إعـــداد

د / محمد حسن محمد عبد الله

المملكة العربية السعودية

محكمة تصدرها كلية آداب المنوفية

العدد الخمسون

يوليو ٢٠٠٢